معنى الجهد وطريق الحق والفضيلة



الجهد هو عنصر من عناصر الخير والفضيلة، والمراد بالجهد هنا ـ بضم ّ الجيم وقد تفتح ـ أن يستخدم المرء كل ّ ما يملك من طاقة لمقاومة ما يصد ّه عن الاستقامة والخلق الكريم في نشاطه وسلوكه. والد ّ ُنيا كل ّها نضال وكفاح، وهل ظفر الإنسان بشيء منها إ ّلا بسعي وجهد، أو نجح فيها غير المجد ّ الكادح والدؤوب الحاذق؟

أمّا الدّ َين والإيمان، فهو فعل الواجب وترك الحرام، ومثله تماما ً الأخلاق، والفرق في اللغة التسمية. فالواجب الفقهي اسمه عند الأخلاقيين خير وفضيلة، والحرام شرّ ورذيلة، وا سبحانه لا يأمر إّلا بخير، ولا ينهى إّلا عن شرّ، ولابد ّ للتنفيذ والطاعة من مكافحة الشهوة العاتية الناهية عن الخير وفعله، ومقاومة الهوى المعاكس لترك الشرّ والرذيلة.

والفقهاء يـُسمّون الواجبات والمحرمات بالتكاليف الشرعية، والأخلاقيون يـُسمّون هذه التكاليف بالإلزام فعلاً أو تركاً، ويقول الفقهاء: يجب على المكلِّيَف إطاعة التكليف وامتثاله، ويقول الأخلاقيون: الإنسان مسؤول عن الإلزام، وأيضاً يشترط الفقهاء النيّة لوجه ا في العبادة، وأهل الأخلاق يوجبون فعل الخير لوجه الخير، وبهذا يلتقي الفريقان على صعيد واحد في الإلزام والمسؤولية والنيَّة.

والجزاء يبحثه الأخلاقيون وعلماء الكلام دون الفقهاء، أمَّا الجهد، فيـُبحث في التصوَّف وعلم الأخلاق.

طريق الحقّ والفضيلة:

لا شيء أكثر من العقبات في طريق الحق والخير والفضيلة، ولا بدع، فإن ثمن كل شيء بحسبه، وإذا عرفنا أن ثمن الجن ثمن الجن عند ا سبحانه النهي عن الهوى، كما جاء في الآية 40 من النازعات، عرفنا أن تنفيذ هذا النهي صعب مستصعب، لأن كل شيء من هذا القبيل يكاد يتحط معلى صخرة الأهواء والأغراض. أليس هوى المرء مشدودا بمنافعه الشخصية تلقائيا وعاطفيا واذا فالنهي عن هواه نهي عن هذه المنافع بالذات، ومن هنا، قال رسول ا (ص) وهو عائد من بعض غزواته: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وقال الإمام أمير المؤمنين (ع): «الحق ثقيل مريء، والباطل خفيف وبيء».

وأقبح القبيح، أن يجهل المرء بجهله، فيظن "الخير شر"اً، والشر "خيراً، وقد يُسيء بهذا الجهل إلى نفسه وهو يحسب أنته يحسن إليها صنعاً!. قال رجل لأبي ذر": «اطرفني بشيء من العلم. فقال له: إن قدرت أن لا تُسيء إلى مَن تحب فافعل. فقال له الرجل: وهل رأيت أحدا ً يُسيء إلى مَن يحبّه؟ قال: نعم، نفسك أحب الأنفُس إليك، فاذا أنت عصيت ا□ فقد أسأت إليها».

وقسم المؤلسّفون في الأخلاق الجهد إلى روحي وبدني، وأطالوا الكلام عن الثاني بلا طائل، لأن ّ السعي والكدح من أجل الرزق وسد ّ الخلسّة من ضرورات الحياة، ولا أحد يسأل الزارع لماذا تزرع؟ والعامل لماذا تعمل؟ وم َن توكسّأ على غيره لعجز فمعه عذره، على أن ّ فئة من الفلاسفة قالوا: «م َن يستهلك ولا يعمل لعجزه يجب أن ي ُترك للموت».

ومنهم أفلاطون وبيكون ونيتشه وتومار وصاحب الإنسان هذا المجهول، وهو من أقطاب القرن العشرين، وبعض الشعوب تترك العجزة في مجاهل الصحراء (مجلة عالم الفكر الكويتية العدد الثالث من المجلد الرابع)، وشعوب أُخرى في هذا العصر تذبح الهرم العاجز وتأكله.

أمّا الجهد البدني في عبادة ا□ سبحانه، فقد كان منذ زمان، حيث كان لحياة الروح آثارها وثمارها، وكان الكثير من العباد يحرصون على الندب حرصهم على الواجب، وأذكر من ذلك مثالاً واحداً، لأنّه نزل من نفسي منزلته، قال رجل لأبي ميسرة العابد: «يرحمك ا□ يا أبا ميسرة، أتجهد نفسك في العبادة، وا□ ذو رحمة واسعة؟!.. فقال له أبو ميسرة: هل رأيت مني ما يدل على القنوط من رحمة ا□؟ إن ّرحمة □ قريب من المحسنين»، فليس لأحد أن يعتمد على رحمته الواسعة إ ّلا أن يكون محسنا ً.. وهنا مكان العبرة والاعتبار لمن يرجو رحمة رب ّه.

هذا ما كان، أمّا ما هو كائن الآن، فقد أنتج العدو "الأجنبي لنا سلعا تستنزف الدماء والأموال، وأفكارا تصلّل العقول وتعمي القلوب، فاستهلكنا هذه وتلك بالكامل، وانسلخنا عن كل قيمة وتراث، ولم يبق فينا من العابدين والمتهج "دين إ "لا م ن يؤد " ون الفريضة المكتوبة وكفى.. على أن هم أقل "من القليل، وإن وجد في الزوايا بقايا من السلف الصالح، فمن باب «لكل قاعدة شواذ».

ومن هنا، كان الجهد النفسي في هذا العصر أكثر إصرا ً وأشد ّ ع ُسرا ً من أي ّ وقت مضى، ولكن هذا لا يخفف المسؤولية، بل يؤك ّد وجوب العمل للخروج من عهدتها، ولا يبر ّر الجريمة، بل يستوجب المزيد من النشاط ومقاومة المنكر، والمؤمن الصادق لا يتهر ّب من واجبه متعل ّلا ً بالأعذار الزائفة، بل يصمد ويضاعف الجهود، وا يضاعف له ويزيده من فضله. وتاريخ الإنسانية كل ّه حرب وصراع بين عناصر الخير وعناصر الشر ّ، وبين أنصار الحق والباطل. حتى دنيانا هذه التي بلغت من الإغراء والماد ّة غايتها، فيها الكثير، و الحمد، من الشهداء والمعتقلين والمشر ّ َدين، لا لشيء إ لا لا أنهم رفضوا الاستسلام للبغي، وأبوا إ الله العدل والمضي على الحق ".

هذا، إلى أنّ النفس الأمّارة لا تملك قنابل وصواريخ، وما لها أيّ سلطان ظاهر وقاهر، وغاية جهدها أن تدعو إلى التمرّد على الدّ ِين والعقل والخلق الكريم، كما جاء في الآية 22 من سورة إبراهيم على لسان الشيطان: (و َم َا ك َان َ ل ِي َ ء َل َي ْك ُم ْ م ِن ْ س ُل ْط َان ٍ إ ِ ّ َلا أَن ْ د َء َو ْت ُك ُم ْ ف َاس ْت َج َب ْت ُم ْ ل ِي ف َلا ت َل ُوم ُون ِي و َل ُوم ُوا أ َن ْف ُس َك ُم ْ) (إبراهيم/ 22).

وكم سمعنا وقرأنا عن أفراد تحرّروا بالعزم الصادق وقوّة الإرادة من أعمال بغيضة وعادات قبيحة بعد أن اعتادوها عشرات السنين، وصارت لهم طبيعة ثانية وثابتة: (و َم َن ْ ي َت َو َكَّ َل ْ ع َلـَى ا□ِ ف َه ُو َ ح َس ْب ُه ُ) (الطلاق/ 3).

المصدر: كتاب فلسفة الأخلاق في الإسلام